الشعور بالحصار: مشكلات الجغرافيا السياسية بين الإسلام والغرب*

تأليف: جراهام فوللر وإيان ليسر

حسني محمد نصر**

تقديم

في غمار التدفق الهائل للكتابات الغربية التي تربط الإسلام بالعنف من جانب، وتسوّق فكرة العداء والخصومة التاريخية والحضارية بين الإسلام والغرب من جانب آخر، يكون صدور دراسة موضوعية تخرج من أسر هذه الرؤية وتوضح مناطق اللقاء بين الحضارتين الإسلامية والغربية، أمرًا مهما في حد ذاته. فما بالنا إذا كانت هذه الدراسة تنفي إلى حد كبير الصراع المزعوم، وتناقش الإسلام بديلاً حضاريًا محتملاً، وليس عدوًا يريد القضاء على الغرب بحضارته وناسه وأفكاره.

والدراسة التي نقوم بمراجعتها هنا لكاتبين عرف عنهما اهتمامهما بدراسة الظاهرة الإسلامية هما: **جراهام فوللر** Graham Fuller **وإيان ليسر** Ian Lesser، وتتألف من سبعة فصول ومقدمة وخاتمة. وتتميز هذه الدراسة في

---

* صدر الكتاب باللغة الإنجليزية:

A Sense of Siege: The Geopolitics of Islam and The West.
Authors: Graham E. Fuller and Ian O.Lesser
Publisher: Westview Press, New York, 1995.

** دكتوراه في الإعلام من جامعة القاهرة، مدرس بكلية الإعلام، جامعة القاهرة.

الأفريقية وشمالاً عبر البلقان والقوقاز وإلى داخل آسيه الوسطى حيث يواجه الإسلام روسية. وهما يتوقعان بسبب هذا التركيز، اعتراضات من هنا وهناك لإسقاطهما بعض المسائل التي تمثل مخاطر محتملة بين المسلمين والغرب في خطوط المواجهة، ويستدلان على ذلك بمقولة بيرنارد لويس: (إننا ـ يقصد الغربيين ـ نواجه حركة ـ يقصد الحركة الإسلامية ـ تتجاوز إلى درجة بعيدة في مستوى القضايا والسياسات والحكومات، لتصل إلى حد اصطدام الحضارات وليس فقط "صراع الثقافات").

ويرد الكاتبان على ذلك بأن الحضارات قوى حقيقية ومعقدة وقوية، ولكننا لا يمكن أن نقبل بالتعامل مع قوى خارج معرفتنا. ومن ثم يؤكدان أن طرحهما يختلف تماماً عن طرح أولئك الذين يتشبثون بشبح مواجهة مؤكدة ومحتومة بين الإسلام والغرب، وبدلاً من ذلك يدعوان إلى النظر في التحليلات الواضحة أو تلك التي تقدم حلولاً جزئية للأزمات وصراع تقسيمها بالتناول المنهجي المتوازن من خلال المقارنة، أو بمعنى أصح المقابلة بين رؤية كل طرف للطرف الآخر، أي رؤية الغرب للإسلام، ورؤية الإسلام للغرب.

في الجزء الأول يعالج المؤلفان ما أطلقا عليه "الفرضيات التاريخية والنفسية" بين الشرق (المسلم) والغرب (المسيحي)، وذلك من خلال قسمين يتناول أولهما مفهوم الغرب للإسلام، في حين يتناول الثاني مفهوم الإسلام للغرب. وينطلق المؤلفان في هذا الجزء من الإيمان بأن العلاقات بين الحضارتين تحمل ميراثًا تاريخيًا ضخمًا من اختلاف الرؤى حول التاريخ والمعتقدات والمفاهيم. ويؤكدان في هذا الصدد أن الطرفين لا يحملان بالتساوي ضغائن وخلافات أحدهما ضد الآخر، وأن الإعلام الغربي والسياسات الغربية قد عمقا مخاوف المسلمين إزاء الغرب وقيمه بدرجة أكبر نسبيًا من المخاوف الحقيقية للغرب من الإسلام.

ويتناول الجزء الثاني من الكتاب المعضلات السياسية المعاصرة التي تواجه الطرفين، ونقاط الاحتكاك الشديد بينهما، ويقارن مفهوم كل منهما للمصالح

والأهداف القومية. ومن الموضوعات التي يبحثها هذا الجزء: قضايا الإرهاب، واللاجئين، وسياسات الإمداد النفطي، والتدخلات العسكرية الغربية، وحظر انتشار أسلحة الدمار الشامل، والسياسات التجارية.

أما الجزء الثالث فيتناول البعد الديني في العلاقة بين الإسلام والغرب، وذلك من خلال الإجابة على عدة تساؤلات محورية مثل: إلى أي مدى تؤثر مفاهيم الدعوة الإسلامية لنشر العقيدة والجهاد (الحرب المقدسة Holy war كما يسميانها) في المواجهة مع الغرب؟ وما هي آفاق التضامن والاتفاق الإسلامي حول أهداف موحدة مشتركة، بما في ذلك الاتحاد ضد الغرب؟

وأخيراً، ينظر هذا القسم من الدراسة في ظاهرة وجود المسلمين في الغرب، وما وراء مسألة هجرتهم من أسباب ودوافع، ومدى التأثير المتوقع من المسلمين في الغرب على مستقبل العلاقات بين الثقافتين الإسلامية والغربية؟ وما إذا كان وجود المسلمين في الغرب يمكن أن يؤدي إلى مزيد من التفاهم أم إلى مزيد من الاحتكاك؟ وعما إذا كان لحياة المسلمين في الغرب تأثير على تطور مجمل التفكير الإسلامي؟

أما الجزء الرابع فيتناول البعد الاستراتيجي في العلاقة. وفيه يحاول الكاتبان استجلاء المعالم الرئيسة البارزة على الخطوط الجغرافية السياسية الفاصلة بين العالمين الغربي والإسلامي، والحدود الفاصلة بين الأقاليم الإسلامية وغير الإسلامية، وتداخل هذه وتلك. ويطرحان تساؤلات حول ما إذا كانت هناك "استراتيجيات ثقافية" متنافرة بين العالم الإسلامي والغرب، وإلى أي مدى يمكن للجانبين أن يتوصلا إلى اتفاق حول مسائل الأمن والاستقرار؟

وفي الجزء الخامس يسوق الكاتبان بعض الملاحظات الختامية، ويقدمان مقترحات أو نصائح لصناع القرار في الغرب عامة وفي الولايات المتحدة خاصة، مثل ضرورة تفادي الحلول السهلة اليسيرة، والنظر إلى المشكلة على أنها غير قابلة للحل، وأنها تفضي إلى صدام حضاري محتوم. ويقرر الكاتبان في

هذا السياق أن موضوع صراع الثقافات على الرغم من أنه قد يثير فضول الطلاب الدارسين، إلا أن تناوله على المستوى السياسي ما هو إلا تهرب من مواجهة حقائق الواقع المعيش.

إن الأسئلة الأكثر أهمية التي يطرحها هذا الكتاب هي:

١- ما المسائل الرئيسة المعرضة للانفجار بين دول إسلامية بعينها وأخرى غير إسلامية، وهل هذه المشكلات آخذة في التفاقم أم هي في طريقها إلى الزوال؟

٢- إلى أي مدى يمثل الإسلام عاملاً في المواجهة بين الدول الإسلامية وغير الإسلامية؟ وما المشاهد والحوارات (السيناريوهات) المحتملة لإسهام الإسلام في تقليل أو زيادة درجة المواجهة؟

٣- إلى أي درجة يُتوقع للتضامن الإسلامي أن ينمو؟ وحول أي المسائل سيتعزز هذا التضامن؟ وما السياسات التي ستتبناها الدول الإسلامية تجاه الغرب؟ وفي المقابل، ما العوامل التي ستؤدي إلى إضعاف التضامن الإسلامي، وتقلل من احتمالات قيام موقف إسلامي مشترك تجاه الغرب؟

٤- ما العوامل الرئيسة - ثقافيًا ودينيًا - التي قد تؤدي إلى تعقيد العلاقات بين الدول الإسلامية والغرب؟

٥- ما خبرة المسلمين في الخارج؟ وإلى إي مدى يتأثرون بتيارات العلمانية، أو يؤثرون في علمنة الدول الإسلامية نفسها؟

٦- ما الخطوات اللازمة لمنع المواجهات الإقليمية المحلية حتى لا تأخذ طابع المجابهة الشاملة ضد الإسلام؟

أي إسلام وأي غرب؟

بعد هذا العرض الموجز لمحتويات الكتاب والأسئلة التي يحاول المؤلفان الإجابة عليها، نرى من المفيد الإشارة إلى بعض الأفكار المحورية التي تضمنها.

ولعل من أهم ما يطرحه المؤلفان منذ البداية التساؤل عن ماهية كل من الإسلام والغرب عندما يطلق هذان المصطلحان. وفي رأيهما أنه ليس هناك "إسلام" ولا هناك "غرب". فهذان المصطلحان مجرد تسمية جاهزة نستعملها، ولكنها في نهاية الأمر تعني معاني مختلفة، لأناس مختلفين في أزمان مختلفة وفي ظل ظروف متباينة. ولذلك فإن من أهداف الكتاب تحديد المقصود بكل من الإسلام والغرب حتى يمكن معالجة "مشكلة الإسلام والغرب" معالجة موضوعية. وفي هذا يؤكدان: أنهما يستعملان الإسلام بين قوسين لسبب سهل وهو أنه ليس هناك إسلام بعينه يمكن تناوله بوصفه قوة واحدة مترابطة ومتماسكة ذات شخصية مميزة .. فهناك مصادر عديدة للتشريع والقانون الإسلامي كالقرآن والحديث والاجتهاد وغيره من النصوص الفقهية والممارسات التاريخية، فضلاً عن أن هناك سنة وشيعة في الإسلام، ولكل من المذهبين فروع مختلفة ومدارس فقهية متنوعة، وثروة من المذاهب الصوفية، والعادات الإقليمية، والعديد من الاختلافات بين القيادات التاريخية في مختلف البلدان الإسلامية عبر ثلاث قارات رئيسة وفي أجواء ومناخات متنوعة، ممّا يشكل في مجمله عالم "الإسلام". وهكذا فإن الإسلام - من وجهة نظرهما ــ لا يشكل هوية أو شخصية موحدة، تمامًا مثلما أن مفهوم الغرب متنوع أيضًا.

هل الصراع أمر حتمي؟

بعد ذلك يناقش المؤلفان فكرة الصراع بين الإسلام والغرب ويتتبعان جذورها التاريخية متسائِلَيْن عن مدى صحتها. وفي ذلك يقولان: "منذ نهاية الحرب الباردة أصبح من المألوف التكهن بأن الصراع الفكري (الأيديولوجي) القادم في العالم قد يكون بين "الإسلام" و "الغرب"، وقد استند هذا التكهن على الاعتقاد بأنه من الحتمي والضروري أن يكون هناك ند أو عدو جديد سوف يتحدى المجتمعات الغربية. وهذا الاعتقاد ليس خاطئًا برمته لأن الغرب - وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ــ بقوته الحقيقية في المجالات الثقافية

والسياسية والاقتصادية والعسكرية، يوحي بالقوة والاقتحام. وبطبيعة الحال فإن هيمنة الغرب على العالم من شأنها أن تولد نوعاً من رد الفعل المعاكس".

لقد كان انهيار الاتحاد السوفيتي مدعاة لقلق معظم الدول في العالم الثالث، ولم يكن ذلك بسبب حب خاص للنظام الشيوعي القديم، بل لأن الاختفاء المفاجئ لموسكو من السياسة الدولية قد قلل من فرص المناورة للدول الصغيرة، التي اضطرت للإبحار في مياه السياسة الدولية التي تسيطر عليها قوة عظمى واحدة، أو كتلة غربية متجانسة. وإذا ما نظرنا في التكوين الأيديولوجي لعالم اليوم والفراغ الذي سببه غياب الاتحاد السوفيتي عن الساحة الدولية، فإنه ليس من المستغرب أن نتوقع قيام نوع من رد الفعل الأيديولوجي لإحداث نوع من التوازن الأيديولوجي وتصحيح هذا الخلل السياقي (الاستراتيجي)، وملء الفراغ الذي حدث بسبب زوال التوازن السوفيتي لقوة الغرب.

البقاء والاستمرارية للإسلام

هل يستطيع الإسلام أن يملأ هذا الفراغ؟ ولماذا يُنظر إلى الإسلام دائما بصفته نداً سياسيًا وأيديولوجيًا للغرب؟

يجيب المؤلفان على ذلك بأن هناك أسباباً عديدة تطرح نفسها في هذا السياق يمكن تلخيصها في الآتي:

١ ـ التاريخ الطويل للعلاقة بين المسيحية والإسلام، الذي تميز عبر ثلاثة عشر قرنا بالمواجهة المستمرة. وفي التاريخ الحديث لم ينس العالم الإسلامي الإمبريالية الغربية واستعمارها لمعظم البلدان الإسلامية، مهما حاولت القوى الغربية النظر إلى تلك المرحلة، بحسبانها مرحلة مضت وتجاوزتها معطيات التاريخ المعاصر.

٢ ـ إن الإسلام يمتاز عن غيره من الديانات السماوية وغير السماوية بوحدة مؤسسية عميقة، وارتباط عضوي قوي بين الدين والمجتمع. وهذه الميزة الفريدة

تجعل من الإسلام قوة حقيقية لها قابلية أكثر للبقاء والاستمرارية، قوة ثقافية متميزة عن الغرب وعصية على الاختراق من قبل المؤثرات الغربية.

الأصولية الإسلامية بين الوهم والحقيقة

وفضلا عمّا سبق، يشير المؤلفان إلى أن ظهور ما سمي "الأصولية الإسلامية" عامل مهم في التنبؤ بحتمية الصراع بين الغرب والإسلام. فقد برزت 'الأصولية'(Fundamentalism)، وهي - كما يعترف الكاتبان - مصطلح فقير وغير دال، على أنها القوة الوحيدة في العالم الأكثر عداء للغرب خلال العقدين الماضيين، خاصة بعد زوال الشيوعية.

ومع انهيار الشيوعية، لم يعد هنالك - وفقًا للمنظور الغربي - أي معتقد شامل يجمع بين شعوب في مساحات جغرافية شاسعة ويمثل تحدياً حقيقيًا للغرب سوى الدين الإسلامي. ومما زاد من هذا التحدي أن منطقة الشرق الأوسط كانت وما زالت أكثر مناطق العالم تعرضا للتدخلات العسكرية الغربية خلال العقود القليلة الماضية، فضلاً عن أن إسرائيل نفسها تعد قوة غربية في منطقة الشرق الأوسط، سواء في شخصيتها أو في الدعم الذي تجده من الغرب.

إن الإسلام يوفر القاعدة الحقيقية للدول الإسلامية في علاقتها مع الغرب القوي، للتعامل معه من منطلق النِّدِيَّة والتكافؤ بدلاً من موقع الضعف الاستراتيجي. وفي سبيل ذلك تسعى الدول الإسلامية إلى الحصول على المزيد من القوة العسكرية بما في ذلك أسلحة الدمار الشامل، بهدف خلق علاقة متوازنة مع الغرب على المستوى الاستراتيجي.. وعلى الرغم من أن هذا الهدف يبدو صعب المنال في الوقت الحاضر على الأقل بالنسبة للإسلاميين، إلا أن السعي إلى تحقيقه يستوجب العمل من جانب الغرب لإزالة أسبابه.

وفي ضوء التزايد المتوقع لأثر الإسلام في السياسات الداخلية للدول الإسلامية عن طريق انخراط الإسلاميين في العملية السياسية، وتزايد فرص

وصولهم للسلطة في أكثر من دولة في الشرق الأوسط، يتنبأ المؤلفان بفقد الحركة الإسلامية جاذبيتها الجماهيرية الحالية لتصبح مجرد قوة سياسية عادية.

التغيير وضروراته في العالم الإسلامي

يرى المؤلفان أن هناك ضرورة ملحة للتغيير السياسي والاقتصادي في العالم الإسلامي للقضاء على النظام التسلطي الفردي العتيق. وهذا يعني أن "الإسلام السياسي" يهدد النظم السياسية القائمة في معظم الدول الإسلامية أكثر من تهديده للغرب. وباستغلاله للمرارات والإحباطات التي خلقها النظام القديم يسعى "الإسلام السياسي" إلى انتهاج خط يقوده إلى السلطة والإطاحة بمعطيات الوضع الراهن. وفي هذا يقول الكاتبان: "نحن نعتقد أن "الإسلام السياسي" يمثل تهديدا حقيقيا لعدد من الأنظمة الفردية في المنطقة العربية، وهذا التهديد لا يمكن معالجته فقط من خلال استيعاب القوى الإسلامية بدرجة أو بأخرى داخل النظام السياسي السائد، أو من خلال سياسات العزل والاضطهاد، لأن ذلك سيؤدي على الأرجح إلى مزيد من المواجهة وربما الانفجار. كما أن عملية استيعاب الإسلاميين بطريقة سلمية داخل النظام السياسي تعد عملية معقدة ومحفوفة بالمخاطر، وأي خطأ فيها سيقود إلى المزيد من اضطراب النظام السياسي، لأن القوى التي تثير العنف لا يمكن احتواؤها بسهولة".

مشكلة المصطلحات: أي إسلام وأي غرب؟

عودةً إلى مشكلة مصطلحي "الإسلام والغرب" اللذين يحيلان إلى معطيات عقدية وتاريخية ونفسية عميقة الجذور، يكشف الكاتبان تضخم هذين المفهومين بفعل مجموعة من التطورات الحديثة، أهمها الإرث الاستعماري، وتشويه السياسة الغربية لصورة العالم الثالث أثناء الحرب الباردة، والإرهاب الدولي، وقضايا النفط، والتدخلات الغربية في الأزمات الإقليمية.. وكلها تطورات تزيد من حدة الخلافات بين الإسلام والغرب.

ومن هنا يعتقد **فوللر وليسر** أن صياغة المسألة وتصويرها بمصطلح 'الإسلام والغرب' ليس تصويراً دقيقاً أو سليماً، ولا يمثل طرحاً إيجابياً أو مناسبًا للقضايا الحقيقية بين الغرب والعالم الإسلامي؛ ذلك أن "الطرح الحضاري للصراع يمكن أن يكون مضراً على المدى الطويل، ليس فقط لأنه طرح زائف في كل الأحوال، ولكن لأنه طرح عاطفي يقود إلى آراء وأفكار تبسيطية مدمرة من قبل الجانبين".

إذن ما هو "الإسلام"؟ وما هو "الغرب"؟ وهل هذان المصطلحان مناسبان في التحليل السياسي؟

يجيب المؤلفان بالنفي، ويرجعان ذلك إلى أن مصطلحي 'الإسلام' و"الغرب" فضفاضان للغاية ويستوعبان مساحات شاسعة ومتنوعة من العالم ويضمان خليطاً من الثقافات والعادات والمفاهيم، كما أنهما لا يعنيان شيئًا محدداً، إما لأنه في لحظات المواجهة يتم اختزالهما بشكل يثير حفيظة الطرفين، أو لأن مثل هذه المفاهيم لا تعمل بمفردها في عملية صنع القرار السياسي.

ويتبنى الكتاب تعريفًا لـ'المسلم' يشمل كل من يعتنق الإسلام ويعد نفسه جزءاً من المجتمع الإسلامي، سواء أكان يمارس الشعائر الإسلامية أم لا. أما مصطلح "الدول الإسلامية" فيشير إلى الدول التي غالبية سكانها مسلمون وتعد نفسها دولاً إسلامية ولكنهم ليسوا بالضرورة إسلاميين (Islamists). والمسلم بهذا المفهوم يعني أيضاً ذلك الإطار الواسع من الممارسات الثقافية للإسلام في أنحاء العالم المختلفة من إفريقية حتى شمال آسية، وهذا المصطلح يختلط في كثير من الأحوال بمصطلح 'إسلامي' Islamic في كل حالة متصلة بالدين الإسلامي.

ظاهرة الأصولية وجذورها المسيحية

ينظر المؤلفان إلى مصطلح 'الأصولية الإسلامية' على أنه مصطلح مضلل. فهو ـ في رأيهما ـ مستورد من المسيحية البروتستانتية وليس له أي أصل في لغات العالم الإسلامي وثقافته وتراثه الفكري. ولذلك يفضل الكاتبان استخدام

مصطلح "الإسلامية" (Islamism) و "الإسلاميون" (Islamists) للإشارة إلى الحركات السياسية التي تتبنى رؤي إسلامية في برامجها وعملها السياسي. والإسلامية يمكن أن يطلق عليها مصطلح "الإسلام السياسي" لأنه يعني وظائف الإسلام السياسية وهو ما يسلط الضوء على البعد السياسي للإسلام. وفي ذلك يقول الكاتبان:

"إن الإسلامية (Islamism) مصطلح عصري لظاهرة عصرية هي ظاهرة الحركات السياسية القائمة على المبادئ الإسلامية، التي لا يقودها علماء دين بالمعنى التقليدي، وتشكل في واقع الأمر تحدياً لعلماء الدين التقليديين. وتهتم هذه الحركات بالمعطيات العصرية والوسائل الحديثة في مجال الإعلام وتحريك الجماهير، ولها برامج عمل سياسية تذهب إلى أبعد من الأهداف الدينية لتطالب بإصلاح الدولة والمجتمع. وتدعو هذه الحركات إلى التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي لصالح الطبقات الدنيا ودون الوسطى من المجتمع".

وإذا كان تعريف "الإسلام" صعباً، فإن تعريف "الغرب" يبدو أصعب، ليس فقط للغربيين ولكن للمسلمين أيضا. ففي بعض الأحيان يعني "الغرب" بالنسبة للمسلمين كل العالم الصناعي بما في ذلك اليابان. وأحياناً يعني "الغرب" الدول الاستعمارية السابقة ـ وكلها أوربية ـ التي استعمرت معظم دول العالم الإسلامي وسيطرت عليها في مرحلة معينة من التاريخ.. وفي حالات أخرى يختصر مفهوم "الغرب" في الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها قوة غربية قيادية تملك الهيمنة السياسية والثقافية والاقتصادية على العالم الإسلامي. وحتى عندما نتعامل مع مفهوم الغرب على أنه الولايات المتحدة، فإنه ـ كما يوضح الكاتبان ـ ليس هناك أمريكا واحدة.

ثم يتساءلان: عن أي أمريكا نتحدث؟ هل هي ببساطة سياسة حكومة الولايات المتحدة، أم الثقافة الأمريكية التي تطورت بصورة كبيرة وأصبحت أكثر استقلالية عن الدولة؟ وماذا عن الأعداد الكبيرة من الأمريكيين المسلمين الذين يمثلون ثاني أكبر مجموعة دينية في الولايات المتحدة؟ وماذا عن الأمريكيين الذين تعود جذورهم إلى عدد من دول العالم الثالث؟

وأخيراً فإن مصطلح "الغرب" يمكن أن يعني عناصر من شعوب الغرب الذين ينطوون على مشاعر سلبية ومعادية ضد العالم الإسلامي بأجمعه.

من هذا التحليل يخلص الكاتبان إلى أنه ليس هناك 'غرب' واحد متماسك يمكن أن نقول: إنه معادٍ للإسلام والدول الإسلامية، كما أنه ليس هناك 'إسلام' موحد يعبر عن مشاعر عدائية مشتركة تجاه الغرب.

مواجهة لا دينية

وبناءً على هذا التحليل فإن السؤال الذي ينشأ هو: هل الصراع في أساسه ذو طابع ديني عقدي متوارث؟ أم أنه يتعلق بدول ذات مصالح متنافرة؟. يجيب **فوللر و ليسر** على ذلك بأنه على الرغم من الجهود التي يبذلها بعض المراقبين للتوصل إلى مواطن التنافر في جذور المعتقدات الدينية، إلا أنهما لا يؤمنان بأن التوترات بين الإسلام والغرب أساسها ديني، فالفوارق الجوهرية ذات جذور سياسية، واقتصادية، ونفسية، واستراتيجية، وثقافية نابعة من داخل الحضارتين الكبريين اللتين نشأتا من هاتين العقيدتين العالميتين. وهما يريان أن معظم الغربيين، حتى وإن كانوا متدينين، لا يفكرون في أنفسهم في الأساس من منطلق أنهم مسيحيون، وأن مفهوم العقيدة المسيحية بالنسبة لمعظم الغربيين مسألة تتعلق بالماضي وبالعصور الوسطى. ولكن بالنسبة للمسلمين الذين مازالوا يحتفظون بمفهوم الأمة في الإسلام، فإن مصطلح العقيدة المسيحية ما يزال ذا دلالة ومعنى. فبعض المسلمين ـ كما يرى المؤلفان ـ ما يزالون ينظرون إلى المسيحية من منظور ديني بحت على أنها ذات عداء تاريخي تقليدي للإسلام، بدلاً من النظر إليها من منظار حضاري أوسع يتمثل في مصطلح 'الغرب' المعاصر. إلاّ أن المؤلفين يشيران هنا إلى أن بعض الإسلاميين ينظرون إلى الغرب على أنه قد تخلى عن تدينه ومثاليته التي تتشابه في كثير من المواضع مع الإسلام، ويرون أن الغربيين الذين كانوا يوماً ما مسيحيين أصلاً، قد أنشأوا ثقافة علمانية حديثة خالية من التعاليم المسيحية، والقيم الخلقية الدينية في العلاقات

الشخصية، وهم يحذرون من أن تصدير الغرب لهذا التحلل الخلقي يمثل تهديداً ثقافياً للمبادئ التقليدية للمجتمع الإسلامي. ولعله مما يزيد من بواعث الخلاف أن المسلمين ـ في نظرتهم للغرب ـ يضمون إليه إسرائيل، ليس على أساس ديني، ولكن على أساس أنها نتاج ثقافي من صنع يهود أوربة وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالغرب من جميع النواحي السياسية والثقافية والاقتصادية والاستراتيجية.

والواقع أن الكتاب ـ كما ينبه المؤلفان ـ يركز اهتمامه على الخط الجغرافي الفاصل بين العالمين الإسلامي والمسيحي، بدءاً بالبحر الأبيض المتوسط ـ الذي عبره ينظر المسلمون والغربيون بعضهم البعض ـ وجنوباً إلى داخل القارة المصالح.. وإذا كانت الحضارات ستبقى دائماً وإلى درجة ما غامضة وغير قابلة لاختراق بعضها بعضًا، فإن الفجوة الحقيقية بين الحضارتين الإسلامية والغربية تبدو، في نظر الكاتبين، أقل من تلك الفجوة التي بين الحضارتين الغربية والهندوسية، والغربية واليابانية، والغربية والإفريقية.

من الذي يشعر بالحصار: الغرب، أم الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي، أم الإسلاميون؟

ماذا يريد **جراهام فوللر وإيان ليسر** أن يقولا بعد أن بحثا ظاهرة "الإسلام السياسي" وعلاقة الإسلام والغرب في كتابهما الذي يلخص عنوانه الدال (الشعور بالحصار) حجم القضية؟ من الذي يشعر بالحصار ـ من وجهة نظرهما ـ من أطراف المعادلة الثلاثة: الحركة الإسلامية التي يبدو أنها تتقدم في مسيرتها، أم الأنظمة في العالم الإسلامي التي تجاوزتها الظروف والأحداث، وتعيش حالة من الرعب المزدوج من قوة الإسلاميين وقوة الغرب، أم الغرب الذي يقتله خوف غامض من مستقبل مواجهة يتصورها مع دين يعرف مدى قوته وتماسكه؟ وبعبارة أخرى ما النتائج التي يخلص إليها الكاتبان؟ وما وصفة العلاج التي يقدمانها ـ بطريقة الأكاديميين في الغرب ـ لصانع القرار السياسي الغربي؟

إن أول النتائج التي توصل إليها الكتاب وأهمها هي أن العلاقات بين الإسلام والغرب لا تمثل بالضرورة المسرح المتوقع "للصراع الأيديولوجي الدولي القادم". فعلى الرغم من التنافس التاريخي بين الجانبين بوصفهما يقومان على

أكبر "عقيدتين دوليتين"، فإن الإسلام ـ لكونه دينًا ـ ليس في اتجاه التصادم مع المسيحية أو الغرب، إنه لا يمكن توقع حدوث مجابهة شاملة بين الكتلة الإسلامية والكتلة الغربية بأي شكل من الأشكال، فالدول والأوضاع والمصالح المتشابكة بينهما لن تسمح بهذه المجابهة.

وهنا يحذر الكاتبان من أن التمادي في إساءة العلاقات السياسية بين الجانبين من شأنه أن يُعَمِّق الخلاف الأيديولوجي الذي يتناقض مع الجانب العملي لأوضاع التواصل بين المسلمين والغرب، بل إن ذلك قد يقود إلى نوع من التصلب الأيديولوجي للعديد من الدول الإسلامية.

قمع الإسلاميين ليس حلاً

يتوقع المؤلفان أن يزداد تأثير الإسلام في السياسات الداخلية للدول الإسلامية. ويتوقعان كذلك أن مثل هذا التأثير سوف يؤدي إلى زعزعة النظم القديمة القائمة على سيطرة أقليات حاكمة مستبدة ومنفردة بالسلطة، وإن انتشار الديمقراطية في المنطقة سيعمل بالقدر نفسه على عدم إمكانية تحقيق الاستقرار بمعزل عن الإسلام. هذا على الرغم من اتجاه الأنظمة القائمة في عدد من الدول الإسلامية إلى سياسة قوامها القمع للحركات الإسلامية بالقوة المسلحة حفاظا على وجودها. وهنا يحذر المؤلفان صُنَّاع السياسة الغربية من خطورة الاعتقاد بأن قمع هذه الحركات يمثل حلا، لأن هذه الحركات تعبر عن مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية حقيقية وعميقة، ويؤدي تعرضها للقمع واضطرارها للعمل السري، إلى النظر إليها من قطاع كبير من الرأي العام المسلم على أنها الإجابة الوحيدة لمطالب المجتمعات الإسلامية، وإلى تضاعف الإقبال عليها، والاستجابة لها بوصفها المعارضة الحقيقية الوحيدة للأنظمة الفاشلة.

وكذلك يؤكد الكاتبان، إن هذه الحركات ليست جسماً جامداً أو كيانا أعمى يسعى إلى إعادة عقارب السياسة إلى الوراء، بل هي على العكس، تتطور وتكتسب خبرة ونضوجاً، ويزداد وعيها بحقائق السياسة، ويتطور فهمها للمؤسسات السياسية الغربية وللنظريات السياسية الحديثة. وهناك وجهات نظر سياسية و"تكتيكات" كثيرة تسود وسط الإسلاميين، تتراوح بين الذين يؤمنون

بالديمقراطية ودواعي العصر، وبين الناشطين الذين يدعون إلى العنف، والمحافظين الذين يفتقرون إلى نظرة متماسكة ومتناسقة إزاء المستقبل. ومن ثم يرى الكاتبان أن عزل الحركات الإسلامية عن العملية السياسية، من شأنه أن يعمق مظاهر التطرف والاستقطاب ويزيد من حدتها. وبالمقابل فإن استيعاب الإسلام السياسي داخل النظام السياسي من شأنه أن يشجع على تطوره ومواكبته لروح العصر والتعامل مع متطلبات العصر.

الدين والعنف السياسي

يأخذ المؤلفان على المفاهيم الغربية للإسلام ربطها غير العادل بين الدين والعنف السياسي، وهذا أمر سيبقى عنصراً مهمًّا في صياغة مستقبل العلاقات بين الإسلام والغرب. ويرى المؤلفان أنه من التبعات المؤسفة للتسوية العربية الإسرائيلية احتمال قيام الجماعات المتطرفة بنقل معاركها إلى المجتمعات الغربية ذاتها، لعرقلة مسيرة التسوية السلمية. وقد يكون من نتائج الصراع في بلاد البلقان الذي أدى إلى تشريد أعداد ضخمة من مسلمي البوسنة الذين تعرضوا للاضطهاد وتجاهل الغرب مأساتهم، ظهور حركة أخرى على غرار النموذج الفلسطيني مما قد يترك نتائج خطيرة في مجال العنف السياسي الدولي.

وفي السياق نفسه، ينظر المؤلفان إلى تطورات الأوضاع في الجزائر، فيلاحظان أن أحداث الجزائر في السنوات الأخيرة قد أثارت بحدة مسألة صلاحية الحكم الإسلامي وممارسة الديمقراطية كما يعرفها الغرب. وعلى الرغم من أنه قد لا يكون هناك عدم تطابق بين المجتمع الإسلامي والديمقراطية، فإن التصريحات المعادية للديمقراطية لبعض القادة الإسلاميين المتطرفين كان من شأنها أن زادت من مشاعر التوجس التي لم تكن عند صناع القرار السياسي في الغرب. ويلفت الكاتبان الانتباه إلى أن العديد من الأنظمة العلمانية في منطقة الشرق الأوسط كانت ولا تزال نشطة في لفت الأنظار إلى "الخطر الإسلامي" بالمعنى الجغرافي السياسي، وفي التركيز على الدور التخريبي لإيران والسودان بالنسبة لاستقرار المنطقة.

الخيارات الغربية

وينتهي الكاتبان إلى القول بأن الخيارات السياسية للغرب عامة والولايات المتحدة خاصة، محدودة في إيقاف مدّ الحركات الإسلامية، والتقليل من

احتمالات وصولها للسلطة. فالقوة السالبة للإحباط الاجتماعي في الدول الإسلامية تحتم إصلاح الأوضاع الداخلية، ولكن هل بمقدور قوى خارجية أن تغير ملامح نظام اجتماعي واقتصادي عاجز، وغير عادل؟ إن **فولر وليسر** يريان أن أكثر ما تستطيع أن تفعله الولايات المتحدة هو أن تراقب التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السلبية، وأن تنقل إلى الحكومات المعنية مخاوفها، وربما نصائحها، بل وربما عدم قدرة الإدارة الأمريكية على مساعدة تلك الحكومات ما لم تقم بإجراءات إصلاحية. وهذه الوسائل السياسية قد لا يكون لها غير أثر ثانوي في معالجة الوهن المستشري في الأنظمة المتآكلة، ولكن يجب إطلاق التحذيرات وإسداء النصائح في كل الأحوال. وفي الوقت نفسه ينصح المؤلفان بأنه من المفيد الحوار مع المجموعات الإسلامية المعتدلة.

يعتقد المؤلفان أن الطرح الإيجابي والجاد لتطوير استقرار العالم الإسلامي سوف يحتاج إلى حوار مفتوح مع المعارضة المشروعة، والقوى الحاكمة على حد سواء. وسيكون هذا أمراً أساسياً لتطوير طريقة العيش مع مجموعات لم تتشكل بعد سياساتها الخارجية إلى حد كبير. فالحاجة إلى الحوار من أكثر الأمور إلحاحاً الآن، طالما أن السياسات الغربية الهادفة إلى تهميش الحركات الإسلامية المتطرفة من خلال التنمية الاقتصادية لن تغير ــ على ما يبدو ــ من أشكال المعارضة داخل إطار زمني متطابق سياسياً. ولأن الإصلاح السياسي قد يقود إلى نتائج سريعة، فإن الأنظمة التي تخضع لضغوط قاسية يجب تشجيعها لاستيعاب الجماعات الإسلامية في العملية السياسية الوطنية.

مواجهة المواجهة

يقرر الكتاب أنه ليس هناك من سياسات جاهزة وواضحة لوقف المواجهة الأيديولوجية بين 'الإسلام والغرب' حتى يمكن تقديمها للولايات المتحدة وحلفائها الدوليين. ولكن هناك بعض المقترحات التي قد تقلل من خطر مواجهة شاملة حول هذه الخطوط.

إن التحدي الرئيس للغرب يتمثل في التأكد من أن كل المشكلات الفردية والثنائية والجماعية لن تتجمع لتصبح مواجهة ثقافية شاملة مع الإسلام. وهذا يعني من ناحية عملية أن المآخذ ضد الدول الإسلامية يجب عدم تصويرها

وربطها بالإسلام ما لم يكن الإسلام بوصفه أيديولوجية طرفاً محدداً في المشكلة. ومن الأفضل تفادي انتقاد "الإسلام الراديكالي" بطريقة تشير إلى العقيدة نفسها أو الإشارة المبهمة إلى "مخاطر الأصولية الإسلامية". فمثل هذه المحاولات من شأنها أن تزيد من سوء التفاهم.

وفي هذا الإطار يذهب الكاتبان إلى أن 'الإسلام الراديكالي' يزداد قوة وجاذبية عندما تتم الإشارة إليه مراراً وتكراراً وعلانية من كبار المسؤولين بوصفه الخطر الرئيس، والاتهامات الموجهة إلى 'الأصولية' توحي بالنسبة لمؤيدي "الإسلام الراديكالي" بأن الحركات الإسلامية على حق وأنه يجب دعمها طالما أن الغرب يناصبها هذا العداء كله ويؤلب عليها الآخرين.

في الختام يمكن القول: إن كتاب **جراهام فولر وإيان ليسر** يمثل أحد الأصوات الناشزة عن 'المعزوفة' العامة التي تروج لها أجهزة الحكم والإعلام في الغرب، وكذا الأنظمة الاستبدادية في العالم الإسلامي، تخويفا من خطر ما سمي "الإسلام الأصولي"؛ وقد اجتهد المؤلفان في اختراق ضباب التعتيم والتشويش ورسم صورة الواقع الحقيقي التي يسعى عرَّابو "الإسلام الأصولي" لإخفائه والتمويه عليه، أعني واقع الاستبداد السياسي والمعاناة الاجتماعية الذي يسود في أغلب بلدان العالم الإسلامي ـ وخاصة في الجزء العربي منها ـ التي نصبت بعض أنظمتها نفسها مدافعًا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان ضد "الخطر الأصولي"! وهو كتاب لن تفيد قراءته الباحث الأكاديمي المهتم بالقضايا السياسية في عالم المسلمين فقط، بل إن قراءته ضرورية ومفيدة للساسة والسياسيين على وجه الخصوص في بلاد الإسلام وفي الغرب على حد سواء.